الابتهال فن طريف فى أدب «محمد»

يشعر الإنسان بضعفه فى الحياة إذا حزبه أمر أو كربه ضيق ، فهو يلتمس المخرج لنفسه بالالتجاء إلى قوة كبيرة ، تنقذه من شدته ، وتنشله من عذابه ، ولن يكون لدى المسلم الصادق قوة أعظم من خالقه ومحبيه ، لذلك كان الالتجاء إلى الله فى كل أمر مفزعًا طبيعيًا يهرع إليه المؤمنون واثقين بعونه وليس لهم غير أن يترجموا عن أزماتهم الكاربة بكلمات صادقة مخلصة ، هى ما يسمى بالدعاء أو الابتهال ، والقرآن الكريم يعرف هذه الحقيقة لدى النفوس المحرجة التى تجد فى السماء فرجًا من ضيق فيقول عنها فى بعض ما قال: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾[1] . ويقول فى أسلوب تصويرى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[2] .

ولهذه الحقيقة النفسية التى تدفع بالضعيف دائمًا إلى الالتجاء لقوة مسعفة ، شرع الله دعـــاءه والابتهال إليه ، ليكون المؤمـــن على ذكر دائم من ربه فهـو يقول :

---

(١) سورة الزمر : ٨ .

(٢) سورة يونس : ٢٢ ، ٢٣ .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[1] ويقول : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[2] ، ثم عد الدعاء مما يمتدح به من صفات النبيين إذ يقول عن بعضهم : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾[3] .

ومحمد ﷺ أقرب الأنبياء إلى ربه ، وأشد المؤمنين تعلقًا بمولاه فهو لا يفتأ يدعوه فى كل ساعة تمر ، حتى ترك من أدعيته الرائعة أدبًا عاليًا له سماته الجميلة من حرارة العاطفة ، وقوة الصدق وجمال التعبير ، وعجيب أن يسكت عنه النقاد غافلين.

لقد ورد الابتهال الربانى فى كتاب الله أول ما ورد فى لغة العرب ، فتحدث القرآن على لسان الأنبياء بأجمل ما يتحدث به من الدعاء حين قال على لسان إبراهيم:

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّىۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ

(١) سورة غافر : ٦٠ .
(٢) سورة البقرة : ١٨٦ .
(٣) سورة الأنبياء : ٩٠ .

وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾[1] .

كما عرض نمطاً من دعاء عباده المتفكرين فى خلق السموات والأرض حين قال على لسانهم :

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾[2] .

وأمثال هذه الابتهالات القرآنية على لسان البشر كثير يعرفه التالون ، وما إليها نقصد فى كتابة هذا الموضوع ، إنما نشير هنا إلى أن الرسول ﷺ كان أول من استجاب إلى نداء ربه حين رفع إلى مقامه الأعلى آخر الأدعية وأحسن الابتهالات فى بيان خلاب .

ولئن كان رسول الله المثل الأعلى للمؤمن الحقيقى ، فإنه لا محالة ذاكر ربه فى كل طرفة عين ، متجهًا إليه مع كل خفقة قلب ، فهو يسبحه ويدعوه إذا أصبح ، وإذا أمسى ، وإذا نام ، وإذا استيقظ ، وإذا سافر ، وإذا رحل ، وإذا أكل ، وإذا شرب، وإذا سمع الرعد ، وإذا نزل المطر ، وإذا هبت الريح ، وإذا أشرقت الشمس، وإذا بزغ الهلال ، وإذا مرض ، وإذا عوفى ، وإذا فزع ، وإذا أمن ، وله فى كل ذلك

(١) سورة إبراهيم : ٣٦ : ٤١ .

(٢) سورة آل عمران : ١٩١ : ١٩٤ .

مأثورات رائعات مشهورات ترددها كتب الصحاح. وهى من الأدب الصميم لب اللباب ، ولابد أن نستعرض هنا نماذج من مأثوراته لنستشف طابعها الأصيل .

يدلف المساء إلى الكون برهبته ووحشته ، فيظلم الأفق بعد ضياء وتتجلى آية لله مكان آية ، وكل متأمل لابد أن يفكر طويلاً فى هذا الاختلاف الكونى بين الليل والنهار ، وما كان لنبى ذى رسالة واعية كنبى الإسلام أن يغفل الانتباه إلى هذه الظواهر المدهشة دون أن تأخذ جانبًا حيًّا من تفكيره ، إنه يستشف من ورائها عظمة الخالق المبدع فيرفع يده إلى السماء قائلاً :

« أمسينا وأمسى الملك لله ، والحمد لله ، لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، رب ، أسألك خير ما فى هذه الليلة ، وخير ما بعدها ، وأعوذ بك من شر ما فى هذه الليلة وشر ما بعدها ، رب ، أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر ، وأعوذ بك من عذاب فى النار وعذاب فى القبر» [1] .

دعوات بسيطة طاهرة ، يرفعها مؤمن تقى إلى خالقه عند المساء ، فإذا حان ميعاد النوم ، لم ينس رسول الله خطر الشرود الذهنى حين يتقلب الإنسان فى مضجعه قبل الرقاد ، ليسبح خاطره وحيدًا فى أمور مسفة من المكر أو الطيش أو تدبير السوء لبعض الناس ، وهى وساوس نفسية لابد أن تلج إلى الخاطر ، وقد تترتب عليها مهواة عميقة تزل بها الأقدام ، فليحصن الرسول أتباعه منها ، فيشير عليهم بالطهارة والدعاء قبل النوم إذ يقول :

«إذا أتيت مضجعك ، فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل: «اللهم ، أسلمت وجهى إليك ، وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، لا ملجأ ولا منجاة منك إلا إليك ، اللهم ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، ونبيك الذى أرسلت ، واجعلهن آخر ما تتكلم به» [2] .

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١١٢.

(٢) « هداية البارى » ، ج ١ ، ص ٢٣.

أرأيت إلى هذا التحصين النفسى من الوساوس والنزعات ، إن المؤمن إذا توضأ قبل النوم ، ودعا ربه معلنًا أنه فوض أمره إليه فلا منجاة منه إلا إليه ، وأنه آمن بالنبى والكتاب ، فلن يسمح لخاطره بعد ذلك التطهير النبوى أن يكون مسرحًا للمؤامرة والاحتيال ، ثم ماذا نرى من البساطة الهادئة فى ألفاظ هذا الدعاء ، لقد جاءت هينة سهلة ليتمكن كل من يريد النوم أن يحفظها دون إجهاد ، وله بعد أن يدعو بها ربه أن يتقبل أطيب الرقاد ، أما إذا شد الموقف ، وشردت الخواطر ، واستولى الأرق بعد ذلك ، فإن الرسول لا يترك المؤمن نهب السهاد يقذفه من بيداء إلى بيداء ، بل يشير عليه أن يلتجئ إلى ربه ليقول فى دعائه :

«اللهم ، رب السموات السبع وما أظلت ، ورب الأرضين وما أقلت ، ورب الشياطين وما أضلت ، كن لى جارًا من شر خلقك كلهم جميعا ، أن يفرط علىّ أحد ، أو أن يبغى على ، عز جارك وجل ثناؤك ، ولا إله إلا أنت» [1] فإذا قام الإنسان فزعًا من النوم فليقل : «أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» [2] .

أما إذا أشرق الصباح ، فلابد من التجاء آخر إلى السماء نسألها العون والعافية ، والحفظ فى معترك النزاع بين الناس ، وذلك ما عبر عنه محمد إذ قال فى دعاء الصباح:

«اللهم ، إنى أسألك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة ، اللهم ، إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى ، وأهلى ومالى ، اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى ، اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى » [3] .

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١٤٥.
(٢) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١٤٤.
(٣) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١١٢.

إن المؤمن المثالى لابد أن يكون ربانيًّا متجهًا إلى السماء فى كل طرفة عين ، ليستمد من قوتها القديرة مددًا لا ينفد ، كذلك كانت جميع ساعات النهار لدى نبى الله مسارح للدعاء والابتهال ، قال ابن عمر: قلما كان رسول الله يقوم من مجلس حتى يدعو بهذه الدعوات لأصحابه: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا ، ومتعنا بأسماعنا ، وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا» [1] .

فماذا نرى فى هذه المعانى الحية «اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الحياة».. لو فكر كاتب كبير فيما يدعو به ربه أتراه يقع على أمثال هذه المعانى ، وفى يسر هذه الصياغة وقوعًا هادئًا غير متكلف! أم أنها من السهل الممتنع نعجب ببساطتها ونعجز عن محاكاتها.

فإذا التزم السفر فى رحلة يجهل عقباها ، فإنه يلتجئ إلى السماء مستنصرًا ، فيكبر الله ثلاثًا ثم يقول: «سبحان الذى سخر لنا هذا ، وما كنا له بمقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون ، اللهم ، إنا نسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى ، اللهم ، هون علينا سفرنا هذا ، واطو عنا بعده ، اللهم ، إنك الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل ، اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر ، وسوء المنقلب فى المال والأهل» [2] .

أما إذا رجع فإنه يقول : «آيبون تائبون عائدون لربنا حامدون» [3] ، وإنه ليتجه إلى الأرض يزورها فى سفره لأول مرة فيقول لها من روعة: «يا أرض ، ربى وربك

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١٢٦.
(٢) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١٣.
(٣) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١٣٦.

الله ، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك ، ومن شر ما يدب عليك ، وأعوذ بالله من أسد وأسود ومن الحية والعقرب ، ومن ساكنى البلد ومن والد وما ولد» [١] .

فإذا هبت الريح رفع يديه قائلا: «اللهم ، إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » [٢] .

ثم إذا سمع الرعد ، أعد له من الدعاء ما يناسبه إذ يهتف: «اللهم ، لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك» [٣] .

أما إذا أثمر الشجر فما أجمل ما تهدى إليه محمد فى قوله حين يراه: «اللهم ، بارك لنا فى ثمارنا ، وبارك لنا فى مدينتنا ، وبارك لنا فى صاعنا ومدنا ، اللهم ، إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك ، وإنى عبدك ونبيك ، وإنه قد دعاك لمكة وأنا أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك به لمكة ومثله معه ، ثم يدعو أصغر وليد يراه فيعطيه ذلك الثمر».

حتى الصلاة المفروضة ، وكلها تكبير وتحميد وتسبيح لا يتركها النبى دون دعاء يفسح له بين التكبير والفاتحة ، وإنه لذو نفحة بيانية مؤرخة تتجلى فى قوله عقب التكبير: «اللهم ، باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم ، نقنى من خطاياى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسلنى من خطاياى بالثلج والماء والبرد» [٤] .

لقد جمع الأستاذ «أحمد أمين» بأحد الأعداد الممتازة من مجلة « الثقافة » [٥] عدة ابتهالات نبوية رآها مما يحسن تقديمه للقراء ، فكان مما اختار من فرائد الرسول.

---

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١٣٨.

(٢) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١٤٢.

(٣) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١٤٣.

(٤) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١٨٩.

(٥) « الثقافة » ، العدد ٤١٣.

«اللهم ، إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى ، وتجمع بها أمرى ، وتلم بها شعثى ، وتزكى بها عملى ، وتلهمنى بها رشدى ، وترد بها ألفتى ، وتعصمنى بها من كل سوء.

اللهم ، أصلح ذات بيننا ، وألف بين قلوبنا ، واهدنا سبيل السلام ، ونجنا من الظلمات إلى النور ، اللهم بارك لنا فى أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة والنجاة من النار.

اللهم ، إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك ، اللهم أنت خلقت نفسى وأنت تتوفاها ، لك مماتها ومحياها إن أحييتها فاحفظها وإن أمتها فاغفر لها».

هذا بعض ما اختاره الأستاذ أحمد أمين ، وأرى أن أضيف إليه دعاء الحفظ فإنه رائع جميل ، يقول رسول الله : «اللهم ارحمنى بترك المعاصى أبدًا ما أبقيتنى ، وارحمنى أن أتكلف ما لا يعنينى ، وارزقنى حسن النظر فيما يرضيك عنى ، اللهم بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام ، والعزة التى لا ترام أسألك يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تلزم قلبى حفظ كتابك كما علمتنى ، وارزقنى أن أتلوه على النحو الذى يرضيك عنى ، اللهم أسألك أن تنور بكتابك بصرى ، وأن تفرج به عن قلبى ، وأن تشرح به صدرى ، وأن تغسل به بدنى ، لأنه لا يعيننى على الحق غيرك ولا يؤتيه إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم» [1] قد يستكثر بعض القراء أن نسهب نوعًا ما فى نقل هذه الابتهالات ، إذ يرى بعضها مما ينوب عن البعض فى رسالة أدبية كهذه الرسالة.. ولكننا تعمدنا الإسهاب تعمدًا أن نشير إلى

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١٥٠.

حقيقة أدبية كبيرة ، هى أن الابتهالات النبوية كانت مصدر الأدب الصوفى فى اللغتين: العربية والفارسية وهى حقيقة مهمة نسيها الناقدون.

إن الأدب الصوفى بمعناه الصحيح فى الآداب الإسلامية - هو الأدب الذى يتجه به قائله إلى ربه نابعًا من مشاعره الحية وأحاسيسه الجياشة نحو السماء ، ومصورًا فى ابتهالات ضارعة تستمد العون من مقتدر قاهر ، خلق الخلق وأجرى الرزق ، ودبر المنشأة والمآل ، فهل ما نعرفه اليوم مما اصطلح عليه الناقدون فى الأدب الصوفى الإسلامى مما يتجه هذا الاتجاه؟

إن الأدب الصوفى الإسلامى قد اتجه فى مفهوم كثير من النقدة إلى حيز غريب عن الإسلام ، فهو لديهم أدب يتحدث عن وحدة الوجود ، والحلول ، والاتحاد ، وهى كلها أمور غريبة عن منطق الإسلام ، وقد ساعد المستشرقون على تأصل هذا الاتجاه فلم يتحدثوا عمن اشتق تعاليمه من القرآن والأحاديث ، من كرام المتصوفين إذ هو فى رأيهم غير متصوف ، أما الصوفى الحقيقى لديهم ، فهو الذى يلهى العقول بألغاز الاتحاد ، والحلول ، ووحدة الوجود ، ويغرق فى التهاويل والخيالات.

وحتى قصائد الغزل النبوية الصريحة تصير أدبًا صوفيًّا فى اتجاه هؤلاء؛ إذ إن ليلى ، وعزة ، وسلمى رموز إلى الحضرة الإلهية ، وإن ما تتصف به الحسناء من الحسن والسحر والجمال ، ومنه الحسى الصارخ كنضرة الخد ، وهيف القد ، وعذوبة الثنايا ، وليونة الأعطاف ، واسوداد الشعر ، واحورار الطرف كل ذلك مما يرمز إلى جمال الله، ونحن لا نرفض جملة كل غزل صوفى ، بل نميل إلى أن بعض المقطوعات الغزلية مما جعلت فيه صفات الحسناء رمزًا للجمال الإلهى قد تنصرف إلى الذات العلية ، إذا كانت الحسناء مجرد رمز معنوى يتحدث عن الجمال المطلق ، كما فى بعض أشعار ابن الفارض. أما أن تكون الأوصاف الحسية للعين ، والصدر ، والنهد ، والخصر ، والردف مما يتجه إلى جمال الخالق فذلك ما يصعب استشفافه لدى الأذكياء ، فكيف بعامة الناس؟

ثم لماذا نقصر الأدب الصوفى على الغزل الرمزى والشطحات الفلسفية ، فلا نتحدث فى مجال الأدب لدى المتصوفين إلا عن (ابن عربى ، وابن سبعين ، والبسطامى ، والحلاج) لنغرق فى أوهام الحلول ووحدة الوجود والاتحاد ، إنا نصارح بالحقيقة حين نعتبر أكثر ما قيل فى ذلك دخيلا على الأدب الصوفى الحقيقى، وهو الذى نبع من حقائق القرآن وتعاليم الحديث ، ثم تمثل أول ما تمثل فى ابتهالات رسول الله.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن هذه الابتهالات النبوية قد نمت وازدهرت فى الأدب العربى على مد عصوره ، بحيث كانت أصلاً ضخمًا امتدت منه فروع لا تحصى ، ففى كل عصر داعية مبتهل يرفع إلى ذات الله أجمل الأدعية وأخلص الابتهالات ومتى جمعت هذه الأدعية فى أسفار خاصة فقد أوجدت من الأدب الرفيع ما تتضاءل دونه دواوين الفخر والمدح والهجاء.

أتغمض العيون عن هذه الثروة الممتازة من البيان وقد ابتدأها الرسول ، ثم نهج نهجه عشرات الصادقين من البررة الأخيار ، وهى بعد لم تقبع فى حيز ضيق وزمن محدود ، بل أدركها التطور فأصبحت – على مر الزمان – تتلى فى صورة أوراد وأحزاب واستغاثات.

إن ما لدينا من ذخائر الأدب الصوفى الصحيح بابتهالاته ، وأوراده ، وأحزابه، واستغاثاته أوفى وأعظم وأبهر من أن يغفله التاريخ الأدبى ، فكيف أغفله مؤرخو الإسلام وقد بدأه رسول الله ؟

قد التفت الدكتور زكى مبارك إلى هذه الناحية الخطيرة فى الجزء الأول من كتابه عن التصوف الإسلامى ، فقال تحت عنوان: «ذخائر منسية فى الأدب الصوفى» ما نصه :

« نتكلم فى هذا الفصل عن طرائف من الأخيلة والمعانى والصور لم يهتم بها رجال الأدب ، ولم يحسبوا لها أى حساب ، ولعل السر فى إغفال مؤرخى الأدب

لهذه الفنون أنهم لم يضعوا البلاغة الصوفية فى الميزان ، لأن الصوفية انحازوا جانبًا عن صحبة الأدباء ، ولأن الأدباء أنفسهم أقبلوا على الصور الحسية إقبالاً شغلهم عن الأدب الذى يصور أحوال الأرواح والقلوب ، فظنوا أدب الصوفية بعيدًا عن المجال الذى تسابقوا فيه: مجال التشبيب ، والوصف ، والحماسة ، والعتاب ، ولو أن رجال الأدب وعلماء البلاغة نظروا فى الأدب الصوفى نظرة جدية لاتخذوا منه شواهد فى المجازات والتشبيهات ، ولرأوا فيه كلمات متخيرة تصلح نماذج لإصابة المعنى والغرض ، ولكنهم انصرفوا عنه فلم نر فى مؤلفاتهم النقدية غير شواهد من كلام الشعراء والخطباء والكتاب الذين سبقوا فى ميادين غير ميادين الأرواح والقلوب» (١) .

ومعنى كلام الدكتور زكى مبارك أن مؤرخى الأدب العربى لم يفهموا أن معنى الأدب فى صميمه هو التعبير الجميل عن الخاطر الجميل ، بل فهموا أنه فى الشعر مجموعة القصائد ذات الأغراض التقليدية ، وفى النثر رسائل وخطب تشغل شئون الناس فى أحوالهم العامة ، أما الابتهالات الصادقة فمما يجب أن يعكف عليه الوعاظ والنساك لا النقدة والأدباء ، وهو فهم قد هوى بكثير من الروائع الملهمة إلى دياجير النسيان ، بينما ارتفع بالهجاء والمجون والغزل بالذكر وما شابه ذلك إلى مشارق الترديد والاحتفاء ، وإلا فكيف جار أن يبتدع محمد ﷺ فن الابتهال فى الأدب العربى ، ويحاكيه عشرات من البلغاء على مد العصور الإسلامية فيأتوا بذخائر غالية من أحاسيس الملهمين ثم لا يلتفت إلى تقديرها النقاد.

ما الذى يمنع أن نتدارك ما فات من هذا الإغفال؟ فينهض ناقد مخلص بتأليف كتاب أدبى تحت عنوان: «فن الابتهال فى الأدب العربى ، يبدؤه بنشأة الابتهال الأولى فى دعوات الرسول ، ثم يتابع ما وليه من تلاميذ الدعوة الإسلامية ، فيتحدث عن ابتهالات أئمة البيت النبوى ، وأدعية الصحابة والتابعين ، وأوراد

(١) « التصوف الإسلامى » ، ج ١ ، ص ١١٣.

المتصوفين ، وأحزاب الذاكرين ، ثم يشخص السمات الفنية للابتهال فى كل عصر ، وسيجد أمامه نبعًا يتدفق وبحرًا لا يغيض.

يكفى فى مجال التقدير الأدبى لابتهالات محمد ، أنها ألهمت أئمة البيت النبوى – على سبيل المثال – أعذب ما يروى من الأدعية ، فسارت ابتهالاتهم تشق الصدور المؤمنة حتى تسكن فى الشغاف ، وتحلق فى الأجواز العالية حتى ترفرف فى عليا السموات.

أليس أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه تلميذ محمد؟ فبأى لسان رطب كان يصدح بصادق الابتهال ، وبأى شعور دفاق استلهم أستاذه وابن عمه حين قال فى دعوات الاستسقاء :

«اللهم ، قد انصاحت جبالنا واغبرت أرضنا ، وهامت دوابنا ، وتحيرت فى مرابضها ، وعجت عجيج الثكالى على أولادها ، وملت التردد فى مرابعها والحنين إلى مواردها ، اللهم ، فارحم أنين الآنة وحنين الحانة ، اللهم ، فارحم حيرتها فى مذاهبها وأنينها فى موالجها ، اللهم ، خرجنا إليك حين اعتكرت علينا حدابير السنين ، وأخلفتنا مخايل الجود ، فكنت الرجاء للمبتئس والبلاغ للملتمس ، ندعوك حين قنط الأنام ، ومنع الغمام ، وهلك السوام ، ألا تؤاخذنا بأعمالنا ولا تأخذنا بذنوبنا ، وانشر علينا رحمتك بالسحاب المنبعق ، والربيع المغدق والنبات المونق ، سحًّا وابلا تحيى به ما قد مات ، وترد به ما قد فات ، اللهم ، سقيا منك محيية مروية، تامة عامة ، طيبة مباركة ، زاكيًا إنباتها ثامرًا فرعها ناضرًا ورقها تنعش بها الضعيف من عبادك ، وتحيى به الميت من بلادك ، اللهم ، سقيا منك تعشب بها نجادنا ، وتجرى بها وهادنا ، وتخصب بها جناننا ، وتبقل بها ثمارنا ، وتعيش بها مواشينا ، وتندى بها أقاحينا وتستعين بها ضواحينا من بركاتك الواسعة ، وعطاياك الجزيلة على بريتك المرملة ، ووحشك المهملة ، وأنزل علينا سماء مخضلة مدرارًا هاطلة ، يدافع الودق منها الودق ، ويحفز القطر منها القطر ، غير خلب برقها ، ولا جهام

عارضها ، ولا قزع ربابها ، ولا شفاق ذهابها ، حتى يخصب لإمراعها المجدبون ، ويحيا ببركتها المسنتون فإنك تنزل الغيث بعد ما قنطوا وتنشر رحمتك وأنت الولى الحميد» [1] .

كيف ننسى أمثال هذا الابتهال ، وهو فى ميزان النقد الأدبى من أرفع أنماط البيان ، وللإمام علىّ أمثلة عدة من نوعه ، ولكن الفوارق الأدبية واضحة ما بينه وبين ابتهالات محمد ، فابتهالات الرسول ﷺ تعتمد على الإيجاز واللمح ، وتشير إلى الكثير ببعض القليل ، أما ابتهالات الإمام على فتعتمد على التشقيق والتفريع ، إذ إن من سماته البيانية لدى النقاد إشباع الفكرة بتذييلها وتوشيتها ، ولن يكون التلميذ نسخة متشابهة من الأستاذ فى كل الوجوه.

سيقول الذين فى قلوبهم مرض : أن يد (الشريف الرضى) وراء كل ما نشره فى نهج البلاغة منسوبًا للإمام ، ونحن نقول لهم: إن عليا كان أبلغ الخطباء بعد رسول الله ، ولن نستكثر عليه أكثر ما عزى إليه من «نهج البلاغة» مما توحى به طبيعة عصره وأفكار جيله : ﴿ **وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾[2] .

ومن غير على من بيت النبوة برز فى الابتهالات؟! إنه حفيده على بن الحسين المعروف بزين العابدين ، وله من الأدعية ما كاد يلحقه بجده الإمام براعة ، وتشقيق منطق ، وحرارة روح مما استلهم فيه جد أبيه محمدًا خاتم الأنبياء صلوات الله عليهم جميعًا.

لقد كان زين العابدين رضى الله عنه لا يقصر الابتهالات على المسائل الشخصية ، بل يقفز بها إلى الوضع السياسى فى عصره ، وهو فى ذلك مصيب ،

(١) « التصوف الإسلامى » ، ج ٢ ، ص ٦٠ عن نهج البلاغة .
(٢) سورة البقرة : ٤٢ .

إذ يعلم أن الله عز وجل وحده صاحب الكلمة العليا فى سياسة الناس وإليه يجأر المظلوم من الظالمين ، والذين يقصرون الابتهال على مسائل الآخرة دون مسائل الدنيا غافلون ساهون ، ويستطيع مؤرخ الابتهالات أن يضيف إليها الجديد إذا دقق فيما روى عن على وحفيده من شكاية الزمان ومحاربة الطغاة.

يقول زين العابدين على بن الحسين فيما روى عنه من الابتهال:

«اللهم وقد شملنا زيغ الفتن ، واستولت علينا عشوة الحيرة ، وقارعنا الذل والصغار ، وحكم فى عبادك غير المأمونين على دينك ، فابتز أموال آل محمد من نقص حكمك وسعى فى تلف عبادك المؤمنين فجعل فيأنا مغنمًا ، وأمانتنا ميراثًا ، واشتريت الملاهى والمعازف بسهم الأرملة واليتيم والمسكين فرتع فى مالك من لا يرعى له حرمة ، وحكم فى أبشار المسلمين أهل الذمة فلا زائد يذودهم عن هلكة، ولا راحم ينظر إليهم بعين الرحمة ، اللهم قد استحصد زرع الباطل وبلغ نهيته ، واستحكم عموده» [1] .

ولا ينكر نقمة زين العابدين على بنى أمية من يعلم أن الحسرة تشتعل فى صدره منذ رأى أباه الحسين ، جزر الرماح بكربلاء فى يوم يشيب فيه الولدان ، وتلك لحظة مفزعة لن يبرح هولها مخيلة الابن الملتاع.

ولن يطول بنا الاستطراد ، فنحصى من بيت النبوة من برع فى الابتهال ، ولكننا نختم القول بجعفر الصادق الإمام الصائم المعروف بالسجاد ذى الثفنات فإن ابتهالاته البارعة وحدها باب معلم فى دنيا البيان ، ولله ما أرق قلبه وأخلص نفسه وأنقى ضميره حين أخذ يسأل ربه فى ضراعة دامعة وابتهال كسير:

«أتراك تغل إلى الأعناق أكفًا تضرعت إليك ، واعتمدت فى صلاتها راكعة ساجدة بين يديك ، أو تقيد بأنكال الجحيم أقدامًا سعت إليك ، وخرجت من

(١) « التصوف الإسلامى » ، ج ٢ ، ص ٦٤.

منازلها لا حجة لها إلا الطمع والرغبة فيما لديك ، منًّا منك عليها سيدى لا منًّا منها عليك ، بل ليت شعرى ، أتراك تصم بين أطباقها أسماعًا تلذذت بحلاوة كتابك الذى أنزلت ، أو تطمس بالعمى فى ظلم مهاويها أبصارًا بكت إليك خوفًا من العقاب وفزعًا من الحساب ، أما وعزتك وجلالك ما أصغت الأسماع حتى صدقت ، ولا أسبلت العيون وأكف العبرات حتى أشفقت ، ولا عجت الأصوات إليك بالدعاء حتى أشفقت ، ولا تحركت الألسن ناطقة باستغفارها ، حتى ندمت على ما كان من زللها وعثارها».

وبعد :

فلعلنا بعد هذا الاستعراض الأدبى لأفانين من الابتهال النبوى على لسان محمد وآله صلوات الله عليهم وسلامه ، نعترف بريادة نبى الإسلام لمن وليه من المبتهلين ، كما نلفت النقاد إلى إنقاذ غرض مهم من الأغراض الأدبية الجميلة كاد أن يعفى عليه النسيان ، وفى أوراد الصادقين من صوفية الشاذلية ، والبكرية ، والنقشبندية قد تراكمت لدينا تركة مثقلة تنتظر من يتقدم إليها بالتشريح والتحليل فينفى منها الدخيل المفتعل ، ويكشف عنها المموه المتكلف ، ثم يرد الفروع إلى أصولها والجداول إلى منابعها ، ويكتب تاريخ هذا الفن مبتدئًا بمحمد ﷺ ؛ إذ كان أول ملهم فى الإسلام ، تطلع إلى أنوار السماء فائتلفت فى قلبه نورًا ، وفاضت على لسانه ابتهالاً صادقًا ، ودعاءً يرتقى إلى سدرة المنتهى دون معراج.

* * *